عاشقة البحر

بقلم: باراج جوبتا

كان محصول الجوت وافراً في ذلك العام.. وكان نصيب السيد قاسم على من ذلك قدراً كبيراً من المال، انتعشت به نفسه، وانتفخ به جيبه، حتى حمله الثراء والراء على التفكير في تزويج ابنته "أمينة"، أليست الحال يومئذ على ما يرام، والظروف من حوله مواتية؟

كان "قاسم علي" يقيم مع زوجته وطفلتهما الوحيدة أمينة، في مزرعة صغيرة تطل على "بادما" في البنغال.. ذلك النهر الهدار الذي لا يهدأ ولا يسكن وإن أذاق المتحدي طعم السكون.. إلى الأبد.

عاش "قاسم علي" في "نایاتشار"، الضاحية الريفية التي كانت قبلاً إحدى الضفاف الرملية للنهر المتقلب ثم تحول عنها.. وعلى مر الزمن تمع فيها خليط من المزارعين المسلمين وصيادي السمك الهندوس.. وجادت زراعة الجوت في هذه البقعة من البنغال الشرقية، وصار لهذا الليف الذهبي شأن كشأن القطن، ونعم الناس القائمون هناك بهذا الرخاء الذي خصتهم به الطبيعة، ولم يعد الأخ يتقاتل مع أخية على لقمة العيش.

وذهب "قاسم إلى الصياد بنامالي، أكبر رجال القرية سناً وأكثرهم توقيراً، وقال له:

– يا شيخ بهايجان، أريد أم أزوج ابنتي أمينة في هذا الموسم، فماذا تقول؟

وقال الشيخ:

– أجل يا قاسم، حسناً تفعل.. وتستطيع أن تنهض إلى سعيك منذ الآن.. أن أمينة قد قاربت سن السادسة عشر، ولكن، هل وجدت الفتى؟.. إن الطفلة العزيزة ينبغي أن يختار لها الزوج الصالح..

– هل تعرف سونواميا الذي يقيم في "حاجيبور"؟ إن له ابناً لا بأس به، وقد تلقن في المدرسة جانباً من العلم.. الا تراه جديراً بهذا الاختيار؟ إن والده قد رأى أمينة بدا لنا أنه أعجبته..

– عظيم .. عظيم .. إن سونواميا رجل موسر وطيب..وفضلاً عن ذلك فإن بلدته حاجيبور لا تبعد كثيراً عنا.. وسيتاح لنا أن نرى طفلتنا كثيراً..

تم الاتفاق على أمر الزواج من غير إجراءات كثيرة.. فقد كان سونواميا – وه مزارع ميسور الحال – يمر كثيراً بناحية نایاشتار في طريقه إلى الميناء القريب لتصريف محصوله من الجوت وأرز الشعير، وكان في أثناء ذلك يختلف إلى منزل قاسم بحكم قرابة بعيدة تجمع بينهما، ويرى ابنته ويعرفها حق المعرفة.

واهتزت القرية لهذا النبأ السعيد.. ولكن الشخص المقصود بهه الضجة كلها لم يكن يأبه له.. أجل كانت أمينة في واد آخر.. في عالمها الصغير تعيش مع هواياتها.. وكانت كلما التفت حولها زميلاتها وناقشنها في الأمر هزت كتفيها وقالت: "لا أدري ماذا يدور حولي.. ماذا يمكن أن

يعني ذلك بالنسبة إلى؟ .. سأرى بنفسي من سيجرؤ على أن يأخذني بعيداً عن هذا البيت".

وكان والداها يدللانها ويشغفان بها، فقد كانت هي الإبنة الوحيدة لهما.. فنشأت عنيدة معتدة برأيها، مندفعة كأمواج النهر التي تحبها وتقضي أوقاتها بين أحضانها..

وكانت أمينة أيضاً تقتني كلباً وقطة وتؤثرهما بعنايتها واهتمامها..

وقد ألفت كلبها وألفها، منذ انساق إلى كوخ والدها ليحتمي من عاصفة شديدة، واطلقت عليه اسم "كالو"، أما القطة فقد التقطتها من شاطيء النهر، ودعتها "مينو".!

واعتادت أمينة أن تندفع بين أمواج النهر وتسبح وتغطس وتقفز كأنها حورية من حوريات البحر، بينما يفق الكلب والقطة "مينو" يشغلنها عن البيت طوال اليوم، فلم يكن في ذهنها أو خيالها شيء آخر.. وبسبب هذه البراءة، وهذه البساطة وخفة الظل، كانت محبوبة من كل شخص، ومع أنها كانت تبدو أكبر من سنها، فإنها كانت لا تزال كالطفلة في حركاتها.. وفي سكناتها! وكانت ذات تقاطيع وملامح جذابة، وكان شعرها الذي لا يقر له قرار وسمرتها الأصيلة الخمرية يكسبانها جمالاً وسحراً..

وذهب سونااميا ذات يوم إلى منزل أبيها ومعه ابنه الصغير.. "نانو"، لينجز بعض الأمور.. واجتمع الشيخ بنامالي وبعض رجال القرية، وحين

تقرر كل شيء طلب الشيخ أمينة ليباركها، ولكن أين هي؟ لقد أفلتت وتوارت عن الأنظار.. أخذت القطة بين ذراعيها وجرت الكلب خلفها وانطلقت بعيداً لتخفي نفسها خلف كثيب من الرمل! .. ثم راحت تمسح بيدها ظهر قطتها بينما تقرب كلبها قائلة: "إياك يا كالو أن تسمح لهم بأن يأخذوني معهم بعيداً، وانبح واصرخ إذا رأيتهم يحاولون أن يمسكوا بي.. ،انت يا مينو، ألا تخمشينهم وتجرحين وجوههم؟..".

ويقترب الكلب ويهز ذيله وترسل القطة مواءها كأنهما يفهمها عنها ويؤمنان على كلامها!

وبحثوا عن أمينة طويلاً حتى عثروا عليها، وبعد إلحاح كثير استدرجوها إلى سونااميا، وأجلسوها بالقرب من ابنه نانو، ولكنها ما كادت ترى الرجل يدعو لها بالتوفيق حتى وثبت على قدميها وهرولت والدموع في عينيها صائحة: لن اذهب .. لن أذهب! وانفجر سونااميا والمدعوون ضاحكين، وأجفل فتاها نانو، وتمتم والدها قاسم معتذراً!

وقال سونااميا: "لا تعلق على ذلك اهتماماً.. سترى أنها ستتغير كثيراً عقب الزواج".

وأمن المدعوون وشيخهم بنامالي على كلامه.

وعندما حل يوم الزواج، بكر إلى القرية سونااميا ووالداه وبعض الأقارب، في قاربين كبيرين عن طريق قناة تتفرع من النهر وتصل بين ناباتشار وحاجيبور وبعض الضواحي.. وتجمع أهل القرية جميعاً في منزل

قاسم، حيث رتبوا كل ما يلزم لإطعام المدعوين، وكان الأولاد والبنات الصغار يلعبون ويلهون، بينما كان هناك فتى دون سن العشرين شديد الحياء – هو "العريس" – يجلس في مكانه بين الجميع في هدوء.

ومنذ أن بزغت شمس ذلك الصباح كانت أمينة تحت رقابة محكمة حتى لا تجنح إلى عادتها في الفرار.. وكانت قد بكت طوال الليل، قبدت لذلك مستكينة مستسلمة.. وتحلقت حولها الفتيات يحدثنها عن فتاها، كيف بدا خجولاً، وكيف.. وشيئاً فشيئاً أخذت تصغى إليهن وتشغف بما تسمع، كالطفلة حين تتعقب مغامرات دميتها في خيالها الساذج، ويضعن في جيدها ويديها الحي، ويجملن وجهها وشعرها بالمساحيق والأدهنة.. أما كالو ومينو فقد كانا مشغولين بنتصيبهما الدسم في الوليمة الكبيرة.

وانتهت المآدب وانفض السامر والاحتفال بعد الظهر، وعاد كل مدعو من حيث أتى، وكان الاتفاق أن يعود العريس مع عروسه إلى حاجيبور في اليوم التالي..

وعندما حل المساء وذهب العريس إلى حجرته رفضت عروسه أن تذهب إلى سريره، ولكنها رضحت في النهاية عندما طمأنتها الأم إلى أنها ستكون معها لتؤنسها، ولم تلبث من التعب والسهر أن غلب عليها النعاس، وتسللت الأم خارجة.. وأحس الفتى أنها فرصة جميلة تعرض له في حياته لأول مرة، واشتاق أن يتحدث إلى عروسه وهو ينظر بإعجاب إلى وجنتيها وفمها الدقيق وشعرهاالساحر وجبهتها التي تزينها الشامة

القرمزية، ولكنه مع ذلك لم يجرؤ حتى على أن يناديها، خشية أن تهب الفتاة وتحدث ثورة!

وحان وقت رحيل الزوجين.. وأعد القارب وحمل إليه صندوق أمينة وهداياها، ولكنها رفضت الذهاب، وأخذت تصيح وتصرح، وجاءت فتيات الحي فوقفن بجانبها، وجاء والدها ووالدتها، وأخذا يخضانها على الذهاب.. دون جدوى! وأخيراً عندما أكدا لها أن العريس سيأتي بها في اليوم التالي، وأن كالو ومينو سيلقيان العناية الكافية والطعام المناسب، رضخت لرغبتهما.. وبعد أن بكت طويلاً ورتبت بيديها فوق كلبها وقطتها، انساقت مع الجمع إلى الماء..

وحين تحرك القارب، سار قاسم وبنامالي وبعض الحاضرين فوق الجسر وقطعوا بعض المسافة، واقترب الكلب كالو مت الجمع وهو ينبح ويصرخ وعينه مثبتة على أمينة، وعندما استدار الجمع عائدين فقز كالو إلى الماء، واقتربت أمينة من حافة القارب وانتشلت الكلب وآوته معها..

وبعد أن هدأت أمينة وهي في صحبة كالو، قال لها "نانو":

– ألا تكلميني يا أمينة؟ إنك لم تتحدثي بكلمة واحدة!

فقالت مستعجبة:

– ولماذا أتحدث إليك؟

– أما تريدينني؟ .. ألا تحبينني؟

وأجابت أمين على الفور:

– لا.. إننى أحب بابا وماما، وكالو، ومينو..

وإذ لمحت وجه صاحبها الصغير تغلفه مسحة من الحزن وخيبة الأمل، حاولت أن تخفف وقع حديثها، فاستأنفت تقول:

– لا بأس، سأحبك أنت أيضاً، إذا كنت تأتي وتعيش معنا.. أما أنا فلن أذهب بعيداً عن منزلنا..

وسكت "نانو" إذ لا فائدة من النقاش في هذا.

ووصلا أخيراً إلى بيت والد العريس في مظاهر ضخمة مرحة، وكانت أمينة محط الأنظار كلها، تسلط عليها الأضواء من كل جانب، فأجفلت قليلاً، وكان حجاب العرس الذي لم تعتده من قبل، وهذه الثياب الجديدة، وهذا الشعر المضمخ بالعطر، وهؤلاء الجمع وفضولهم.. كان كل هذا يكاد يحملها على أن تنطلق هاربة، مهما تكن العاقبة!

وعندما آوت إلى مخدعها في جوف الليل، وكلبها كالو يرقد على الأرض بالقرب من سريرها.، جعلت تفكر في والديها، وفي قطتها، وفي "بادما" العجوز العزيز رفيق الصبا.. الذي لا يعرف السكون.. وإن عرف كيف يذيق المتحدي طعم السكون.. إلى الأبد!

وغلب عليها التأثر فانفجرت بالبكاء والانتحاب حتى لم تعد تقوى على المزيد .. واسلمها الجهد والسهد إلى النعاس، فاستسلمت له.. وفي خلال ذلك لم يجد نانة أو يهمس برغبة!

وتألم سوناميا وزوجته كثيراً إذ وجد أمينة لا تجدي معهما محاولاتهما لإدخال السرور على نفسها.. حتى إذا تقدم الصباح وانتصف النهار، وهدأت حركة البيت حاول نانو أن يتحين الفرصة ليتحدث إليها، ولكنه – لدهشه – لم يجدها هنا أو هناك!

كانت أمينة تجلس وحيدة في ظل شجرة نائية خارج الدار، لا يؤنسها في وحدتها إلا كلبها كالو.. وبقيت ساهمة تطيل النظر إلى الأفق الواسع والحقول الخضر.. ولعلها تخيلت بادما – النهر – لابد أن يكون متوارياً خلف هذا الصف القريب من الأشجار، من يدري!.. لعل والدتها تبكي هي الأخرى لهذا الفراق.. لعل قطتها مينو لم تصب لنفسها ما يكفيها من طعام!

ونهضت فوق قدميها، وانطلقت مع كلبها وهمست عند رأسه قائلة: "لنذهب بعيداً، لنعد معاً.. ألا تستطيع يا كالو أن تدلني على البيت العزيز توصلني إليه؟".

ولم يزد الكلب على أن يهز ذيله، ومشى بجانبها..

وعدت أمينة والكلب خلفها يعبران الحقول، وهي تأمل أن تصل إلى شواطيء بادما.. ورأى "نانو" الهاربين فجرى نحوهما، حتى إذا ما

اقترب منهما استدار الكلب ونبح في وجهه، كان يصده ويخاصمه. وأسمسك "نانو" بيد أمينة وجذبها معه إلى البيت مؤكداً لها أنه سيذهب بها إلى "نایاشتار" في صبيحة اليوم التالي.

وعندما علم والداه بما حدث، خامرتهما الكآبة وساورتهما خيبة الأمل.. ولكنهما رأيا أنه ليس من الصواب أن يضغطا على الفتاة لتبقى في بيتها رغم إرادتها.. ولذلك استقر رأيهما على أن يصحبها "نانو" إلى نایاشتار في الصباح المبكر.. وهما يأملان أن تعود فيما بعد إلى رشدها، عندما تكبر مع مرور الزمن.

وعندما تأكدت أمينة مما انبئت به، غمرتها فرحة طاغية، وقامت مع استهلال الفجر فاغتسلت وارتدت ثيابها في لمح البصر، وابتسمت لأول مرة في وجه الرجل وزوجته، وقالت لهما أنها ستعود إليهما ثانية، فطابا نفساً وأحسنا وداعها.

ما كاد القارب يصل إلى مرساه عند بلدتها نایاشتار حتى قفزت أمينة من مقعدها وعبرت الشاطئ مع كالو.. وجرت مسرعة نحو البيت وهي تصيح: "ماما.. ها قد جئت.. مينو. ها أنا ذي.."!

وكان "نانو" يسير معها وهي تسرع نحو البيت، فالتفتت إليه فجأة وقالت في سرور: "وأنت طيب.. أنا أحبك الآن".

لم يكن والدا أمينة يتوقعان أن تعود ابنتهما بمثل هذه السرعة، وعلما بجلية الأمر كله من نانو.. ومع ذلك ابتهجا بعودة أمينة، فقد كانا يعانيان هما أيضاً من فراق طفلتهما العزيزة.

وعند الظهر استأذن "نانو" في العودة إلى البيت من حيث أتى، وبينا كان يأخذ طريقه إلى القارب الراسي في القناة، لمح أمينة تختلس النظرات وترمقه من خلف أعواد الحظيرة.. وكان واضحاً أنها تتحين الوقت لتلتقي به.. ولما ذهب إليها ابتسمت وقالت له: "متى تأتي لتمكث معنا؟ لقد قلت لك أنني سأحبك أكثر من كالو، وأكثر من مينو..".

وقال لها في تلطف:

– أحقاً ذلك يا أمينة؟ أننا سنكون معاً هناك وهناك.. فهل يرضيك هذا؟ وهل تحبينني إذن؟

– لا أدري تماماً .. ولكن، انتظر هنا معنا بضعة أيام وسأخبرك.. قالت هذا وجرت بعيداً كالغزال الشارد، ولم يجد "نانو" بداً من أن يمكث..

وقبل أن تنحدر الشمس نحو المغيب، ظهرت في الأفق كوكبة من السحب القاتمة المثقلة بالماء.. وألقت بها فوق صفحة النهر الواسع.. وتغير الجو وآذنت العواصف بالهبوب.. وانتفضت الأنسام وتقطعت السحب، وامتزج لونها الداكن بلون الشفق القرمزي الشاحب.. فعكسا

الظلال والألوان فوق المكان، وتسلل الظلام كالمتلصص كأنما يريد أن يسبق موعده في غفلة من الزمن!.. وتهادت أسراب الطير بلا عدد تملأ جماعاتها الفضاء وترصع بأجنحتها السماء، عائدة إلى أوكارها في أطراف الأشجار، ولاح صيادو السمك من بعيد في قوارب الصيد يقتربون من الشاطئ ويهرولون عائدين إلى أكواخهم.

وبدأت الريح تهب قوية عاصفة.. وما لبثت أن تحولت إلى ما يشبه الزوبعة.. وسمع اصطفاق الأمواج فوق صفحة النهر القريب كفحيح الأفعى في سكون الليل.. وارتفع الفحيح حتى صار زمجرة واصطخاباً يصدر عن تلاطم الأمواج الغضبى بأطراف الشط، وإذا الرعد يقصف قصفاً يصم الآذان والبرق يومض ومضاً يغشي العيون!..

وأسرع قاسم فأدخل ماشيته في الحظيرة، وقدم لها العليق، واندفع نحو الكوخ فوارب بابه الخيزراني وثبته حتى لا تؤرجحه الرياح.. ووضع في ركن من كوخه سراجاً خافت الضوء يلتمع ويخبو دواليك كعيون الحباحب.. وجلست أمينة فوق حشية تغني لكلبها وقطتها اللذين لاذا بها من الخوف، بينما كانت والدتها تضع أطباق الطعام لوجبة العشاء فوق أرض المكان..

واهتاجت الطبيعة واشتد غضبها، متمثلاً في الزابع المندفعة والرياح العاصفة والأمواج المتدافعة والأعاصير المجنونة، بينما كان يشق الفضاء ومض البرق أو يسمع هزيم الرعد وولولة الطير، وبدا كأن الإعصار يوشك أن يقتلع الكوخ ويقذف به بعيداً.. وركع الرجل وركع "نانو" فوق حصير

وراحا يصليان، وأم أمينة تتلو هي الأخرى بعض الأوراد والأيات!.. أما أمينة نفسها، فأين هي..؟.

وفجأة اندفعت الريح من بين أعواد الخيزران وأطفأت السراج وصاحب الأم تخاطب ابنتها:

– هل أنت خائفة يا أمينة؟.. إن العاصفة ستهدأ فوراً.. ولما لم تتلق الأم جواباً، زحفت نحو فراشها وتحسسته بيديها، فلما لم تجدها صرخت كالمجنونة:

– أمينة.. أمينة.. أين أنت؟!

وسألها قاسم في لهفة:

– ماذا؟.. أليست في فراشها؟

قالت:

– لا ..

وعادت تتمتم : "أوه.. يا الهي.. هل ذهبت ابنتي؟!".

وأشعلوا السراج وبحثوا عن الفتاة.. كان الكلب والقطة رابضين هناك، أما أمينة فقد تسللت إلى الخارج.. إن قاسم وزوجته يعرفان سر ابنتهما.. يعرفان شغفها بمداعبة الأمواج أثناء هبوب الزوبعة وانطلاق

العاصفة.. لقد وجدا الباب مفتوحا على مصراعية، فتخطياه على عجل إلى الخارج.. وصاحا: "أمينة.. أمينة.. ارجعي، عودي..".

وخرج بعض الصيادين الجيران عندما سمعوا النداء، وحمل أحدهم فانوساً يضئ لهم الطريق واتجهوا نحو النهر، ولكن "نانو" كان في المقدمة، وقد استبد به القلق.

ولحق به الكلب كالو ....

ومر بعض الوقت قبل أن يتحقق الفتى والجمع من رؤية شبح بعيد أحضان المياه.. لقد كانت أمينة هناك تداعب الأمواج كعادتها، في النهر الصاخب الغاضب الهدار، الذي لا يعرف السكون، وإن عرف كيف يذيق المتحدي طعم السكون.. إلى الأبد".

ولم يقف "نانو" مكتوف اليدين، بل اندفع نحوها واحتضنها، وعاد بها إلى موضع أمين، وهو لا يكاد يصدق أنه ظفر بها، وأنها تلف عنقها حول عنقه، وتستريح على كتفيه الرحبين، وتستندان إلى ذراعيه القويتين.

وفي داخل البيت الصغير، في الكوخ الخيزراني، فتحت أمينة عينيها ونظرت إلى "نانو" نظرة ذات معنى جديد، وفهم جديد.. نظرة حب عميق!.. لقد خطر في تلك اللحظة أن ذلك النهر حتى لو سحرها بهدوئه حين يكون ناعماً كحضن الأم، أو راعها بغضبه الجميل حين يصبح ثائراً كالوحش الهائج، فإن "نانو" يمكن أن يتفوق عليه.. إنه يحب.. ويحب، ولو قدم من قرية ثانية!..

اعلمن يا بناتي العزيزات أنه يوجد قريباً من هذا المكان كهف مظلم، يحرس أبوابه مارد الجان، وفي جوف هذا الكهف كنز كبير. وأنني لا أفكر الآن فيما لو استطعت أن أقتل هذا المارد وأسلك طريقي داخل المغارة، إذن لجعلت منكن فتيات ثريات، تغرقن في الذهب وقطع الفضة، فضلاً عن نفائس الحلي والجواهر، من قلائد وأقراط وأسورة، لم تحصل عليها ملكة أو أميرة حتى الآن! لقد عولت على أن أذهب إليه وأقوم بمخاطرتي، وما عليكن إلا أن تراقبن هذا الجدل المجاور، فإذا رأيتن ماءه قد تغير لونه واصبح ضارباً إلى الحمرة فعلمن أنه "المارد" قد انتصر وقضى على، وأن دمي قد طل، وامتزج بالماء الذي ينساب به الجدول!.. ولكن لا عليكن من هذا ولا تخشين شيئاً، يكفي أن تصلين لأجلي حتى يوفقني الله في هذه المخاطرة.. فالوداع الوداع!..

وبعد جهد سمحت لها الفتيات بالمضي، فقد كن لبرائتهن وحسن نواياهن يخشين عيها مما يصادفها. وتحولن يحملقن في ماء الجدول! وهن في قلق شديد.. ومضت لحظة رهيبة، ثم ما لبثن أن رأين الماء أحمر قانياً، كانما استحال إلى دم دافق.. فوجمن، ولم يدركن الحيلة التي لجأت إليها زوجة أبيهن.. لقد ذهبت إلى جانب المجرى ووضغت فيه مسحوق الطوب الأحمر ليحلله التيار في مجرى الغدير، وتتوهم الفتيات أن زوجة أبيهن قد قضي عليها، فعلت ذلك ثم عادت إلى بيتها حيث كان زوجها الشيخ يغط في نوم عميق!

أما الفتيات اللاتي لا حول لهن ولا حيلة فقد شعرن بالأسف العميق ووخز الضمير.. ولم يكن أمامهن سوى أن يبقين حيث هن باكيات مولولات في يأس مرير.. وتخيلن مصيرهن بعد أن يستبد بهن الجوع.. والوحدة.. والخوف!

عادت الزجة لتوهم الرجل أن البنات قد وقعنفريسة لأسد هائج أو وحش مفترس.. تماماً كما ادعى أخوة يوسف عليه أمام أبيهم. ومضى الليل ثقيلاً طويلاً، وفي الصباح فوجئ الرجل والمرأة الشريرة إذ لم يجدا الأنضبة التسعة من الطعام الذي كان يأتي لأفراد الأسرة – وهي مكتملة الشمل – فوق السطح.. واستطاع الشيخ أن يربط بين هذا المكر والخديعة.. ولكن ماذا كان يستطيع أن يفعل؟! لقد كان من كبر السن وضعف الجسم بحيث لا يقوى على الروج من البيت والبحث عن بناته.. وعلى مر الأيام قضى كلاهما نحبه: أحدهما بسبب الحزن القاتل، والآخر من جراء تبكيت الضمير! وبينما كانت الفتيات يتمرغن على الأرض وهن يفكرن في مستقبلهن المجهول، كان صغراهن تعبث بيدها في التراب كالطفل، الذي يحفر في أرض الشاطيء.. وإذا بها تجد قطعة نقود برونزية لا تساوي أكثر من مليم، مطمورة على بعد بوصة أو بوصتين.. فحملت هذا الخبر السار إلى احتها الكبرى، ردت عليها قائلة: "احرصي عليها يا أختاه فإن القطعة المبروكة ربما جلبت لك الزوج المرتجي".

ولم تكف الفتاة عن التنقيب، بدافع من حب الاستطلاع، وأدهشها أن تعثر بعد قليل على مطواة.. ولما أخبرت أختها بما عثرت عليه قالت

لها: "احرصي يا أختاه عليها، فربما احتجنا إليها في هذا الظرف العصيب".

وعادت الفتاة تحفر الأرض بهمة فائقة، حتى إذا تعمقت نحو قدمين في باطن الأرض، وجدت قبراً مفتوحاً.. وتجمعت البنات ليرين الكشف الجديد، وما لبثن أن نزلن إليه ونظفنه من الأقذار التي كانت تملأ جوانبه.. فوجدنه يقود إلى دهليز طويل يؤدي إلى حجرة واسعة من أجمل ما رأته العين، مزينة بالتحف ومؤثثة بأفخر الرياش والأثاث.

وأخذت الفتيات يدرن بأعينهن في أرجاء المكان مأخوذات، ورحن يفكرن في أن يتخذن هذا المكان الفخم سكناً لهن، ولكن صاحبة المسكن، وهي ساحرة بشعة المنظر، اشتمت رائحة بشرية آتية من أحد ابهاء قصرها الكبير تحت الأرض، فراحت على الفور تبحث من حجرة إلى أخرى عن مصدر الرائحة، حتى وصلت إلى الحجرة التي فيها البنات، وما زلن يتحادثن في أمر اكتشافهن الخطير.. وفرحت الساحرة إذ وجدت هذه المجموعة من الضحايا، وأخذت تستعد لأن تجعل منهم أكلة دسمة لها وغنيمة باردة تملأ جوفها.. وفي سبيل ذلك جعلت تحتال عليهن، وتعرض عليهن أن يقمن في قصرها، وترفقت بهن في الحديث بعبارات معسولة في مثل كلمات الأم الحانية، غير أن الفتيات كن من الذكاء بحيث أدركن ما تدبره المرأة، فقررن في أنفسهن لا أن يسارعن إلى النجاة بأنفسهن، بل أن يعمدن إلى قتل الساحرة بالحيلة، ثم يستأثرن لأنفسهن بالقصر العظيم.. فصرن يتملقنها ويلاطفنها ويظفرن بحبها حتى

توصلن إلى الكثير من الأسرار وخفاياها.. وأطلعتهن الساحرة على كل شئ إلا غرفة واحدة مقفلة ابت عليهن أن يدخلن إليها، ويكشفن عما فيها.. ومع ذلك فإن استراجهن لها، وكلماتهن الرقيقة التي اختصصنها بها، جعلتها تلين في النهاية، وتفتح لهن هذه الغرفة العجيبة، فإذا هي تحتوي على مجموعة نادرة من الأدوية والدمى الأثرية، حتى عبقرية العلماء.. وكانت هناك إحدى القوارير، تحوي سماً قاتلاً شديد التأثير، كما صرحت لهن بذلك في لحظة غباء.. وعنئذ لم يعد هناك شئ في القصر تحتاج الفتيات إلى معرفته!

وفي ذات يوم، قالت الفتيات للساحرة أنهن يرغبن في إقامة مأدبة كبرى تكيرماً لها، وفي المساء كان كل شئ معداً أحسن إعداد.. وجعلت الفتيات يقدمن للمحتفى بها طبقاً من الطعام والحلوى. وكان إحداها قد خلط بالسم الزعاف الذي كان محفوظاً في غرفة الأسرار الرهيبة.. وما أن تناولته العجوز حتى قضت لسعاتها، وهكذا نجحت الخطة الجهنمية التي دبرنها.. واصبحن هن الآمرات الناهيات في القصر وآل إليهن ما حواه من كنوز ونفائس، وما لا حصر له من طعام وشراب وكساء!

وجاء يوم دار الحديث بينهن عن الزواج.. إنهن الآن يبحثن عن الزوج الموعود..قالت إحداهن أنها تتمنى لو أنها تظفر بخباز فتتزوج به، وبذلك تستطيع في أي وقت أن تجد الخبز والفطر وأنواع الكعك والبسكويت، وقالت الأخرى أنها تتمنى أن تتزوج بلبان، لأنها مغرمة بشرب اللبن، وتمنت الثالثة أن يكون زوجها "ترزياً" حتى تلبس أفخر

الثياب وتظفر بأجمل "الأرواب".. ورغبت كبراهن في أن تتزوج "أميراً" أو "ملكاً" متوجاً لكي يطلق عليها لقب "جلالة الملكة" وتر زوجها يحكم المملكة، ويتسلط على رعاياها.. وتمنت أخت أخرى أن يكون أحلامهن زخيالاتهن، إذا بملك كشمير الذي كان يتجول في المدينة متنكراً ليخبر حالة رعاياه بنفسه، يسمع كل ما دار بينهن من حديث، فلم يلبث أن أرسل وزيره ليرى ماذا هناك تحت الأرض، ومن هؤلاء اللائي يعشن هناك ويتجاذبن الأحاديث.. وذهب الوزير ثم عاد بعد دقائق ليخبر الملك بكل شيء وينقل إليه حديث الفتيات السبع، وحدثه على الأخص بالجمال الرائع الذي تتمتع به الفتاة الكبرى والطموح الذي يبدو في حديثها وحركاتها.. ولم ينتظر البنات، وأخذ بجمال الفتاة التي تمنت أن تكون زوجة الملك، وخيل إليه أنها هي الجمال والسحر بعينها تتمثل مجسمة في هذا الكائن الساحر الماثل إلى جواره.. وتزوج الملك بالفتاة، كما أمر بزواج الفتيات الأخريات طبقاً لرغباتهن، فدبر رجاله لكل منهن الزوج الذي تتمناه.. فتزوجت الأخت الثانية بالوزير المرافق للملك، وترزوجت الثالثة بصانع ماهر واسع الثراء، يستطيع بوساطة مستخدميه من مهمرة الصناع أن يخرج أفخر الثياب ويبتكر أجمل الأزياء. وتزوجت الرابعة بخباز يملك أكبر مخبز في مدينة "شريناجار"، وتزوجت الخامسة بلبان، و السادسة بجواهري، والسابعة بتاجر خردوات.

ومرت الأيام والشهور والأعوام.. والملك والملكة يعيشان معاً في لام ووئام، وكان ذلك على غير ما تشتهي شقيقاتها اللواتي ندمن على حماقتهن في الماضي، فقد تحققن أن شقيقتهن الكبرى وإن تكن قد

تمنت مجرد أمنية، قد اصبحت حقيقة واقعة وظفرت بالتنصيب الأوفر!.. وهكذا بدا الحسد يأكل قلوبهن، إذ رأين أنفسهن وأزواجهن مجرد رعايا لهذه الملكة التي لم تكن إلا واحدة مثلهن، من دمهن وطبقتهن!

وعرف في أنحاء المملكة على وشك أن تضع مولودها.. وعندما انتشر النبأ السعيد استقبل بترحيب ظاهر في كل مكان، ما عدا الشقيقات الست اللائي استقبلن الخبر بوجوم وغيظ:كيف يرضخن لولي العهد الذي يستعبدهن هن وأزواجهن كسائر أفراد الرعية، بينما هو ليس إلا ابن شقيقتهن المحظوظة!!؟

واجتمعن معاً ودبرن فيما بينهن خطة.. واتفقن على موعد يتوجهن فيه القصر، وفي الموعد المضروب، ذهبن إلى أختهن، حيث لقين منها ترحيباً كبيراً، ومدت لهن موائد الشاي والأطعمة الفاخرة التي تختص بها قصور الملوك وحدها. لما جاء دور الحديث قلن لها: "أيتها الأخت العزيزة، لماذا لا تطلبين معونتنا كلما امكن أن نقوم بخدمة لك؟!.. إننا نتمنى لو أنك تعلمين مقدار اهتمامنا بصحتك وبراحتك وبخاصة في هذه الأيام.. فعدينا إذن أن ترسلي في طلبنا عند اللزوم، لنكون في خدمتك عندما تسعد الدنيا باستقبال ولي العهد".

ووافقت الملكة على رأيهن شاكرة لهن جميل معونتهن، أما هن فقد انصرفن وانتظرن، وكلما اقترب اليوم المنتظر استبد بهن القلق خشية أن تفلت منهن الفرصة الذهبية التي دبرنها للانتقام..

وأخيراً جاءت الساعة الحاسمة، وذهبت الأخوات جميعاً إلى القصر، وولدت الملكة طفلاً، جميل المحيا، جذاب الملامح، تزينه شامة صغيرة فوق خده الأيسر، ولكن واأسفاه! إن الخطر يكمن له على مبعدة خطوات. فما أن رأته الأخوات حتى تلقينه في أيديهن وأسرعن إلى وضعه في صندوق خشبي أحكمن غلقه وقذفن به إلى قاع النهر!.

ولم يكتفين بهذا، بل وضعن "جرواً" حديث الولادة بجانب الملكة وقلن للملك أنها لم تلد سوى هذا الكلب الصغير، وصرت الملكة مغيظة تقول أنها وضعت طفلاً على خده شامة، ولكن بلا طائل! ولم يسئ الملك إليها، بل جعل يعزيها ببعض الحكم والعظات.

وحملت صفحة الماء الصندوق الصغير، ولمحه بستاني شيخ، محروم هو وزوجته من الأبناء، فحين فتح الصندوق سره أن يجد فيه أجمل طفل يمكن أن يتصوره إنسان.. ووظل هو وزوجته يعنيان به حتى كبر واصبح ية في الذكاء والفطنة.

زمرت سنتان أو نحو ذلك، وتأهبت الملكة لأن تضع مولودها الثاني، وعادت الأخوات الست إلى سابق فعلتهن، واستطعن أن ينفذن إلى القصر في ساعة الولادة، ثم حملن المولود، وكان بنتاً في هذه المرة، ووضعنه في صندوق وقذفن به في النهر، وكن قد دبرن وضع "قطة" في فراش "الملكة"، وزعمن أنها وليدة أختهن في هذه المرة!!

واستشاط الملك غضباً، وتواردت في ذهنه الخواطر السود، وتشكك في أن تكون زوجته آدمية كبنات حواء، وتذكر أنه لم يجدها على ظهر الأرض بين الأناس كبقية بنات الناس ذوات الحسب والنسب، بل وجدها في دهليز مسحور تحت الأرض.

وعندئذ أمر فاقضيت الملكة المسكينة عن القصر، وزج بها في السجن، ولحق بها أمر الملك بانفصالها عنه وطلاقها منه!

وعثر البستاني على الطفلة بنفس الطريقة التي عثر بها على شقيقها، وأعجبه جمالها ورقة ملامحها، ولم يكن يدري أنها أخت الطفل الذي تبناه، وما إن لبث أن حملها إلى زوجته وتوفر كلاهما على تربيتها إلى جانب الطفل الأول، حتى صارت صبية ساحرة تملأ البيت هي وأخوها حركة ولعباً ومرحاً.

ولم تكتف الشقيقات عن تتبع مصير الطفلين، ورحن يحاولن التخلص منهما حتى يأمن على أنفسهن من مفاجآت المستقبل، ويطفئن غليل الحقد في أنفسهن، وكن على علم بمصيرهما منذ أن قذفن بهما في الماء إلى أن ربيا في رعاية البستاني الفقير.

وساتدعين إحدى النساء الشريرات وكلفنها بالعمل على التخلص من الطفلين.. فذهبت المرأة تحوم حول البيت الذي يقيمان فيه، إلى أن رأت الطفلة وتوددت إليها وتظاهرت بمحبتها لها، حتى إذا أمنت جانبها قالت لها ذات مرة:

– لماذا لا يكون لديك يا طفلتي العزيزة جدول يجري بالماء الفضي الدافق، وأريكة وارفة الظلال يفنى على أغصانها بلبل جميل؟!

قالت الطفلة:

– وأنى يكون لي ذلك وليس في أرضنا ماء ولا طير ولا شجر؟!

– فأجابت:

– إن كل إنسان يستطيع أن يحقق أمنيته بأيسر الجهد، وما عليك إلا أن تطلبي إلى أخيك أن يصعد إلى الجبل البعيد ليملأ يده بحفنة ماء. وينزع غصناً من الشجرة التي بجواره ويمسك بعصفور وببغاء، ثم يأتي بها جميعاً وينثر الماء حيث تريدين أن يكون الجدول، ثم يغرس العسلوج، فيجري الماء وتنمو الشجرة على ضفته ويغرد العصفور والببغاء فوقها، وتعيشين أنت في سعادة دائمة.

ولما عادت الطفلة رآها أخوها على غير عادتها، مهمومة غاضبة، فسألها عما يشغل بالها فصرحت له بطلبها، ولم يطق الطفل، الذي يجري في عروقه الدم الملكي، صبراً على غضبها فطيب خاطرها ووعدها بتحقيق طلبها فوراً، على الرغم من غرابته وصعوبته.

وانفلت الطفل الشجاع صاعداً إلى الجبل، فلمحه في الطريق ناسك يتعبد لله في صومعته، فدعاه إليه وسأله عن وجهته، ولما ذكر له ما كان من أمر أخته معه، قال له:

"أنصك يا بني ألا تذهب في هذا الطريق لئلا تهلك، إن الشريك يكمن فيه، وكل من أوغلوا فيه من ملوك وأبطال واشراف ذهبوا ولم يعودوا.. على أنك فيما يبدو لي لن تعمل بنصيحتي لإصرارك على إراضء أختك، وإذن فإليك هذه النصيحة وأرجو أن تتبعها بكل تيقظ، وهي أن تذهب لوجهتك مباشرة من غير أن تلتفت هنا أو هناك مهما سمعت من أصوات سحرية تأتي من وراء الشجر، تحاول أن تخدعك وتجتذبك إليها.. سر في خط مستقيم وعد من نفس الطريق ولا تتحول عنها أو تتلكأ فيها، فهذه هي الوسيلة الوحيدة لنجاتك".

وذهب الفتى، وعمل بنصيحة الرجل كما أوصاه بها، وعاد بما طلبته أخته وحقق رغبتها، وبذلك أفسد الخطة التي رسمتها المرأة الشريرة، ولم يعد في مقدورها أن ترى وجهها لأحد الطفلين أو حتى لإحدى الأخوات الست.

وفي ذات يوم، كان ملك كشمير يتحول متنكراً في أنحاء المدينة على عادته، فلما رأى الصبي أعجب به ورأى النور يتضوا في عينيه ويرتسم على وجنتيه، فدعاه وتحدث معه، فشعر بحنين في دمه وجاذبية تملك عليه مشاعرة، وطلب إلى الصبي وأخته أن يزوراه في القصر.

وبالطبع لم يتهاون الفتى والفتاة في زيارة الملك، بل ذهبا إلى القصر، وتكررت زيارتهما وفي كل زيارة تتوثق صلة الملك بهما، الذي يعجب إذ يرى الشبه الكبير بين طباعه وطباعهما، وألفتهما للقصر

وعاداته التي لا يألفها إلا أبناء الملوك، وصار يجد سعادة وعزاء كبيراً في وجودهما إلى جواره.

وخرج يوماً لزيارة الزوجة المسكين في سجنها، فوجدها في حزنها ترفع عينيها إلى السماء وتقول: لكن الله أيتها الأخوات الشريرات!.. أخفيتن عني وليدي الجميل ذا الشامة الصغيرة على خده الأيسر، والجبهة والرأس المشابهين لرأس ابيه وجبهته، ثم سرقتن أخته الطفلة الجميلة التي لا تقل عنه بهاء وسحراً وبقيت أنا وحدي أكاد أقضي من الهم والحسرة والحدث الفاجع!".

فاستوقفه دعاؤها، وذهب على الفور فأمر باستدعاء البستاني والتحقيق معه، فروى كل شئس ولم يخف شيئاً، وعندئذ أصدر الملك أمره بإطلاق سراح الزوجة. وجئ بأخواتها وعذبن حتى اعترفن بجريمتهن الشنعاء.

وعادت الملكة معززة مكرمة إلى سابق مجدها ومكانتها وعاشت مع زوجها الملك وولديها المحبوبين طول زمانهم في هناءة وسعادة دائمتين.

ص ٢٤٦ – ٢٤٧

هذا هو الرجل الذي اكتحلت عيني برؤيته إذ ذاك.

كان ذلك في صبيحة أحد أيام الآحاد، وكنت أنا منصرفاً إلى عملي في إحدى حجرات المنزل عندما تهادى إلى سمعي صوت غناء يأتي من بعيد، ووعت أذناي ألحان أنشودة لطيفة يرددها صوتان في أحدهما عمق وصفاء وفي الآخر قوة وحرارة:

"أي نوع من العبادة يدعو إليه.. هذا الذي لا ينتسب إلى الالهة كلية القدرة "رادها""؟!

"أي نوع من العبادة عبادته.. هذا الذي يعبد من لا ثمرة ترجى من وراء السجود له والتسبيح باسمه"؟!

عندئذ اتجه تفكيري بعيداً عن العمل، وخرجت لأرى ما هنالك.. فوجدت على الإفريز الممتد أمام البيت ثلاثة أشخاص يجلسون: أحدهم في الثالثة من عمره، وهو ابني وقد جلس فوق مقعده الصغير، والآخران يرتديان ثياباً بالية صفراء ينتمي اليها. وكان أحدهما يحمل مخلاة معلقة في كتفه، وفي يده قرعة جوفاء صنعت على شكب وعاء، وقد شدت إلى حبل، وله شعر كثيف خشن يغطي رأسه، أما لحيته فكانت تشبه الغابة المتشابكة الأغصان! .. وكان الرجل يخطو نحو الأربعين.

هكذا كان "جوربدان" حين عرفته..

استمر الرجل وطفله في الغناء.. فأحضرت مقعداً وانتحيت به جانباً، وجلست أصغي..

"هكذا أسدي إلينا كتابنا الهندوكي المقدس "فيدا" نصيحته.. قائلاً: انه بدون "رادها" المصدر الأول للقوة، لن تكون هناك جدوى من جميع العبادات والطقوس..".

وجاءت زوجتي في أعقابي.. جاءت وقدمت لهما بعض الأرز وبعض النقود. وكتن صنيعها هذا مدعاة لتحمسهما في الإنشاد.. فرتلا أنشودة بعد اخرى، وترنيمة في إثر ترنيمة.. ثم أمسكا أخيراً عن الغناء وأخذ الرجل يشرح معاني هذه الأذكار:

"إن الترنيمة تقول، ايها الأب الجليل، إنه بدون القوة فلا خلاص، وبدون الخلاص فلا عتق للروح!.. إن الآلهة "سيتا" هي سر قوة الإله "راما". و"دورجا" هي أصل قوة الإله "شيفا". و"رادها" هي التي تمد "كريشنا" بالقوة وقوة الرجل هي المرأة. أن أحدها من الناس لا يعلم ذلك. ولكي يصل المرء إلى حقيقة هذا العلم، ينبغي أن يقصد إلى الأب الروحي الذي يلقننا تعاليم هذا الدين..".

وراح الرجل يمتدح المرشد الذي يلقي إليه بتعاليمه، كرجل على جانب عظيم من الروحانية، وقال أنه بين الحين والحين يأتي المرشد ليتفقد تلاميذه، ووعد بأنه عندما يأتي في المرة القادمة، سيناشده أن يحضر إلى لكي أراه.

وحمل الرجل جعبته ووعاءه وطفله، وذهب.. ذهب في طريقه إلى حيث لا أدري.

وذات ليلة وجدت الرجل قد عاد ثانية. وكان في هذه المرة بمفرده لا يصطحب أحداً. وبعد أن تحدث معي قليلاً سألني عن الصورة التي التقطت له في المرة السابقة، ولم تكن معدة. وردد في بلده الريفي.. كانت الحياة قاسية، لم يكن دائماً في ظروف مواتية، ومع ذلك فقد كان أحسن حالاً من سواه.. كان يملك كوخاً، وكان يملك أرضاً.. وثوراً.. وحديقة ذات أعناب وثمار، وشيئاً من النشب، ومن المال..

كان الرجل أذن في رخاء العيش وهو في منزله ذاك. لقد كان "جوربدان" ابن فلاح مزارع، وكانت مزرعته تفيض بالير، ببركة "لكشمي" آلهة الرخاء، وكانت له زوجة فاضلة مخلصة.. وفجأة تعرض لهما القدر: كان لهما ابن لم يتجاوز ثمانية عشر شهراً اختطفه منهما الموت، فجنت زوجته من الحزن عليه منذ أن فجعت في وليدها، ولم يكن في مقدور الأطباء أن يخلصوها من الامها وأحزانها. وفي ذات ليلة حلمت الزوجة حلماً.. رأت شخصاً جميل المحيا عذب الحديث، يعظ عدداً من الناس عن الحب المقدس وعن أسراره، وأخذ يلقن كل واحد منهم دعاء إلى الآلهة. وكان تاثير كلماته كتأثير السحر، فإن جميع الذين استمعوا إليه قد شعروا بارتياح عظيم، وبأنهم قد تخلصوا من متاعبهم وأحزانهم، وعادوا إلى بيوتهم مبتهجين، وقلوبهم تفيض بالشكر، وألسنتهم تلهج بالدعاء. واستيقظت الزوجة وهي لا تفكر إلا في شئ واحد، هو الوصول بأي ثمن إلى هذا الواعظ المبارك. فمنه وحده تستطيع أن تحصل على العزاء والخلاص، وعلى السلام والأمان. ولكن من هو هذا الشخصي؟ وما اسمه؟ وأين يقيم؟ بل هل هو موجود؟!.. إن زوجة "جوربدان" لم تكن في

حالة تسمح لها بالإصغاء إلى اعتراضاته. كان الإيمان يملؤها بأنها لابد ملتقية به يوماً ما. وقد أصرت على أن تحضر جميع الاحتفالات الدينية، لعلها تصل إليه.

وبعد تجوال هنا وهناك بغير كلل أو تراخ، وجدت أخيراً ضالتها.. أو قل أنها زعمت أنه هو الشخص الذي كانت تعنيه. وصدقها الرجل في اعتقادها، وكان مظهر الأب جديراً بالاحترام والإجلال.. كان وسيم الطلعة مهيباً، يحف به الجلال والرهبة، كأنه البحر.

وقال لهما الأب لهما في تعاليمه أنه ليس من الواب أن تضطرب حياتها العائلية، وأن يسلما نفسيهما للأحزان والأوهام، وكل ما عليهما أن يصنعاه هو أن يقيما تمثالاً للإله جوبال والطفل المقدس كريشنا، وأن يتعبدا لهما صباح مساء، وليل نهار. وبهذه الوسيلة يحيا كل منهما بعقل نقي وجسد طاهر، وأن يشتركا في إحياء الأذكار وتلاوة الأوراد، وكل متاعبهما حينئذ سيتولاها الإله نفسه!

واستعادت الزوجة شيئاً فشيئاً راحتها وهدوء بالها، وثاب إليها رشدها. وأصبحت أفكارها وأفكار زوجها متجهة دائماً إلى مرشدهما وإلى تعاليمه، وكان حريصين على حصر نشاطهما في حضور حفلات الدين وحلقات الذكر، يزورانها في أي مكان، في البلدان المجاورة، ويتزاوران مع الأفراد والعائلات.. حتى تعرفا على عدد كبير منهم، صاروا يأتون إليهما ويمضون في بيتهما بعض الليالي، وكان الجميع يقضون أمسياتهم في الإنشاد وترديد الأذكار، وتلاوة والأوراد الدينية..

وفي ذات يوم جاء لزيارتهما أحد هؤلاء الأخوة المنتمين إلى شيعتهما، ومكث عندهما وقتاً طويلاً، وكان يحسن ترتيل الأذكار، فأخذ الناس يمتدحونه، ويتحدثون عن مواهبه بإعجاب، وعندما عزم على الرحيل، تدخلب بعضهم مقترحاً أن يمكث إلى أن يحين وقت الاحتفال الديني الكبير ليشترك فيه. وأحرج الزوج فلم يقل شيئاً، وصمتت الزوجة فخرجت بصمتها عن لا أو نعم.. وفي المساء ساورته الأحلام المزعجة.. وفكر في أن يستيقظ ويتحدث بشكوكه إلى زوجته، ولكنه بدلاً من ذلك أخذ يصلي لأجل هدايتها، ولم يفاتحها بشيء.. كان هنالك حائط سميك من الغيرة والشكوك يقوم حائلاً بينهما فلم يجرؤ أحدهما على التحدث إلى شريكه في صراحة..

وذات ليلة أخرى استيقظ الرجل مذعوراً بعد كابوس مزعج.. وبينا هو يتمتم ببعض التعاويذ ليتخلص من تأثير الكابوس، إذ تنبه إلى أن زوجته لا تضطجع إلى جواره.. لعلها ذهبت لقضاء حاجة؟ لعلها تعود إليه بغير إبطاء؟.. لكنها لم تعد. ماذا إذن؟ وبدا الرجل يضطرب.. واسلم نفسه للأفكار الشريرة والشكوك القاتلة، ولكن قلبه لم يهدأ.. واندفع "جوربدان" إلى خارج حجرته.. إلى الحجرة التي ينام فيها "الصاحب".. ولكنه وجدها خالية. كيف هذا؟ لقد كاد "جوربدان" يصعق!.. وبقي مشوش الفكر لا يدري ماذا يفعل.. وعندما حاول أن ينطق لم يسعفه النطق. وأخيراً استطاع أن يستنتج أن زوجته ربما اتخذت وجهتها إلى "براندابان"..

وإذ سمعت منه قصته ثقل قلبي بالهم لأجلهما، لم يطاوعني قلبي على أن ألومها.. لقد عاشت معه ثمانية عشر عاماً، ولما هجرته لم تهجره بغير سبب قوي فيما أظن، ولكن لعل السبب كان غير واضح عند هذا الزوج، أو غير مقنع!

في ذلك اليوم تناول "جوربدان" طعام العشاء عندنا، وبكى الرجل عرفانا بالجميل وهو يقول: "يا سيدي أني امرؤ لا أهمية له، ماذا يفيد الله من تعذيبي؟!.. ماذا يصنع ومض البرق إذا صدم شجرة موز؟!".. ولم أقوم أمام كلماته على التجلدوترقرقت دمعة في مآقي، وأرسلت زفرة حرى وأنا أجيبه: "لا شئ عند الله يعتبر مهماً أو غير مهم، إذا كنت تؤمن به فهو يعطيك الجواب على سؤالك.. أما أنا.. أنا لا أؤمن!".

قلت له هذا وأنا أعلم أنه من الصعب إقناعه بأني أدين بالمذهب المادي على الرغم من هذه الستائر المقدسة التي رآها معلقة على لم يكن الرجل يدرك ما أحاول أن أقوله له، فقال لي وهو لا يزال على اعتقاده في: "إنك قديس مبارك، وهذا هو سر رضى الله عنك وعطفه عليك.. فلا تفقد ثقتك به، أيها السيد".

وعاد الرجل مرة أخرى – بأفكار جديدة – بعد أيام.. كان مجرد الصدى المنبعث من إنشاده كافياً لأن يحملني على الخروج إلى الباب لكي أراه.. كانت ترانيمه دائماً هي علامة مقدمة.. وفي هذه المرة أخذ يردد هذه الكلمات: "في الإنسان نفسه يكمن اساس العبادة الحقة..".

"الرجل والطبيعة – الرجل والمرأة – كلاهما يعاون الآخر..

"تحقق من قوة الله، وقدرة كريشنا..

"وستجد برهان ذلك في داخلك.. في أعماق نفسك"..

وجلست إليه، وجعلت أدون في أوراقي كلمات الترنيمة.

وكان لا يزال هناك ما يقوله.. وبعد أن قدم له ببعض الحديث لتجنب الدخول في موضوعه مباشرة، قال: "أيها السيد.. اني ازداد يقيناً ببأن كل ما يملكه المرء لا يمكن إلا أن يكون ملوثاً.. ولقد كنت عولت على أن أقيم في مكاني طالما جاد على المحسنون بعطاياهم، فإذا أمسكوا رحلت، كما يقول المثل: نهر يفيض ورب يرزق، فإذا غاض أزمعنا..".

قلت: "ماذا تعني؟ هل عرضت لك فرصة من جديد لتقتني شيئاً؟"..:

فأجاب : "إن بعضهم رغب في أن يخصني بما لديه.. إنه مريد أبناء المذهب، وهو يريد أن يشدني إلى الأرض من جديد. لقد قلت له أني كان لدي زوجة من قبل، وأخليت سبيلها.. فهل أعود لآخذ إمراءة أخرى لرجل آخر إلى سابق عهدي في الحرث والعزق وشواغل العرض الزائل؟! لقد قيل في المثل أن البقرة التي تكون في حظيرة مستعرة باللهب، تحس بالبرودة في الجو المشمس".

وصمت.. وعاد هو يرضخ كلامه: "إن الكائن البشري لابد أن يصيبه العطب والتسمم، والمرأة هي هذا السم!..".

قلت : "أية امرأة تعني؟".

قال : "أيها السيد، المرأة هي ضالة الإنسان آخر الأمر، كالعكاز الذي يقود الأعمى، إنما تقود صاحبها إلى هدفه، وبعون المرأة نصل إلى قدس الأقداس، بل إلى النعيم..أو هكذا يخيل لنا!".

– ولكنك قلت لي أن هناك "قوة الله"، وقدرة "كريشنا"..؟!

وفكر قليلاً، ثم قال :

"قوة الله؟.. ماذا أقول؟! إن هذه القوة في حاجة إلى تجسيم كي يظهر أثرها.. إن زوجتي قد رحلت إلى برانابان، فلو كنت متذرعاً بقوة الله فهل كنت أخلي سبيلها بمثل هذه السهولة؟!".

فجعلت أنا أيضاً أتدبر هذه الكلمات، ورحت أفكر : ما هي صلة الرجل بالمرأة؟ أهي مجرد أن يعيشا معاً في سباق مع الحياة ومع الأحداث، وفي صراع مع القدر؟ في موسم يحجان، وفي موسم آخر يقدمان النذور، أو يتعبدان ويتهجدان؟ أهذه هي كل رسالتهما التي خلقا لأجلها في الحياة؟ أليس هناك شئ آخر يخصهما – هما – وحدهما؟!

وعاد "جوربدان" يقول: "بغير امرأة لن تكون هناك حياة روحية، ولا تزاوج أرواح. ومع ذلك فإلى أين أصطحبها معي؟ وأين أدعها تقيم؟ رجل

جائع يتخذ له زوجة.. ياللعجب! أكان ينبغي أن ألوث نفسي مرة أخرى بحطام الدنيا من أجلها.. من أجل امرأة؟!

ترى هل يعني الرجل بهذا الكلام أن زوجته قد عادت إليه؟ لقد أدرك ما يجوب بخاطري فقال لي على الفور : "لقد سمعت أيها السيد أن المرأة ما زالت تقيم في برندابان.. حياة يغلفها الحزن وألسى والألم.. إن الرجب الذي تركت بيتها من أجله قد هجرها!.. ولا عجب، فإن الشخص الذي يسرق لأجلك لابد أن تعيره يوماً ما بالسرقة – هكذا يقول المثل – يجب أن تعاني تلك الخاطئة نتائج ما اقترفته بحماقتها وخيانتها. عندما غادرت بيتي أخذت معها تمثال الإله جوبال، وقد حملت العاطفة الدينية بعض الأفراد على أن يمدوها ببعض المساعدات، فاستعانت بها على العيش بعض الوقت، ولم تجرؤ على أن تعود إلى بيتي لتريني وجهها، ولكنها مع ذلك طامنت من كبريائها الجريحة وأرسلت إلى تطلب أن أزورها. ولكن كيف أذهب؟ إن الإله وحده هو الذي يوجهني وليست هي".

وزادتني كلماته فضولاً كي أعرف ما خفي من أمره، وحينئذ صرح لي بأنه قد اتخذ لنفسه امرأة أخرى نزولا على رغبة معلمه. لقد أرسل الأب المقدس في طلبه عندما علم بأنه قد هجر بيته وتشرد في البلاد بغير هدف. وبين له أن مثل هذه الحياة تعرقل تقدمه الروحي، وأوصاه أن يتزوج مرة أخرى. وكان من الصعب أن يقنعه بهذه الوصية.. إذ كيف يستطيع الأصلع أن يمر تحت الشجرة الجوز؟.. ولكن المعلم قرأ أفكاره

وقال له : "إن الإنسان ليجلب الحزن لنفسه. إنه يحسب أنه مادام قد تزوج بامرأة فستكون له مدى الحياة. ولكن هل هذا ممكن؟ في العالم وجد الموت. فهل يستطيع أن يحميها من الموت؟ وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يحميها من الموت، فكيف يستطيع أن يحميها من الحب؟ هل الحب أقل قوة من الموت؟!".

لقد أوصاه معلمه أن يتهيأ لحياة جديدة.. وكان أن تزوج بفتاة سيئة الحظ، من اتباع شيعته.. كانت فتاة طيبة القلب، وكانت أرملة، مات طفلها الوحيد ولم تجد من يسأل عنها، حتى أثاث بيتها قد باعه شقيق زوجها في المزاد، وطردها خارج البيت، فأصبحا – هي وزوجها – لا يجدان موضعا يسندان فيه رأسيهما.

وحمل الرجل حمله من جديد. ولكن إلى متى؟ وإلى أين؟ لا بيت له ولا مزرعة، لا غابة ولا حتى.. صومعة! ولم يمض وقت طويل وهما يتسكعان مشردين في الطرقات حتى سقطت أعياء، واصابها مرض لم تشف منه..

ووجدتني أشجعه على أن يحضرها لتعني بها زوجتي وتساعدها على العلاج.. وبعد أيم حضرا معاً.. حضر الرجل والمرأة.. الرجل والطبيعة!.. كانت الفتاة نحيفة مديدة القامة، ولم تكن قوية البنية كزوجها "جوربدان"، وقد ذهب المرض المزمن بجمالها، وبدا عليها الكبر فتغضن وجهها وذبلت عيناها. ونادتنا المأة أن نترفق بها.. ووعدتها زوجتي بأن

تسأل طبيب الصحة عما يصنعه لها، ولكن في ذلك الوقت لم يكن هناك استعداد خاص وارتفعت لسوء الحظ أصوات الاحتجاج على علاجها.

ويبدو أن "جوربدان" كان يعتقد أنني لو قدمت معونة مالية لقامت الحكومة بتقديم الدواء، ولكن الحكومة أيضاً في ذلك الوقت كانت تقتصد في نفقاتها، وكنت أنا نفسي محدود الموارد، فلم نصل إلى نتيجة، واضطر الرجل وزوجته إلى الرحيل من حيث أتيا بلا عون أحد.. ذهبا ولم يعودا بعد ذلك إلى الآن.. أني لأذكر جيداً الطريق الذي جاءاني منه مؤملين مستنجدين، وذهبا فيه يائسين، بائسين، وما زالت نفسي طافحة بالحسرة والألم الممض من جراء هذه المأساة.

آه لو خلت الحياة من الأمراض.. ومن الآلام!

(ترجمتها من البنغالية إلى الإنجليزية : ليلي راي).

– هل سمعت عن أناس يقدمون أراضيهم بالمجان؟.. وأجابته الزوجة وهي مطمئنة كأنما جاءته بإبريق من اللبن تغطيه طبقة سميكة من الكريمة!